

# رسالة الأديب العربي في مكافحة الإمبريالية

## بقلم هادي الرهيب

مقدمة :

بعد أن الاستعمار البشري والاحتلال العسكري لم يحل المشكلة فسي جميع الأقطار المستعمرة . فحيثما بقيت من الشعوب بقية ولدت حركات النضال . لم يفن مليون مغيم في الجزائر ومثلهم في ليبيا ، وضعفهم الان في فلسطين ، عن الدم الخارجي والقوة المسلحة ، ولم يخفف من نفقات الاحتلال . وكانت الحرب العالمية الثانية فرقت زخم نضال الشعوب الى ذرى عالية . قاومت الشعوب ونظمت ابناءها وطاقاتها في جبهات تحرير . وواحد تلو الآخر انتزعت استقلالها . ولم يمد هذا النوع من الاستعمار ممكنا بشكله التقليدي .

لكن الرأسمالية العالمية لم تقف متفرجة أمام هذا التطور الخطير، فسارعت بتطوير أساليبها وبنيتها . لقد أزدهر رأس المال وصار قوة اقتصادية مستقلة بذاتها . وبالتدريج صار للمصرف شخصية استعمارية قوية ما لبثت ان ألحقت بها المصنع وعماله ونتاجه . وبعد أن كان المصنع هو الذي يامر المصرف ويوجه سياسته ، صار جزءا من نشاطه وتابعها له . وبدلا من ان يذهب جنود الاحتلال الى الهند او غيرها لتأمين مصالح الاستثمار الاقتصادية صار المصرف في لندن ونيويورك وباريس يفعل ذلك في مبنى ضخم باحد شوارع العاصمة الرأسمالية التروسنات المصرفية غدت تحكم العالم . هنا ، لا جنود احتلال ولا نفقات اضافية . هنا يكمن اعداء غير منظوريين يحكمون الطرق على اقتصاد العالم ، ويعررون من ميايهم الضخمة كم يدفعون تما كليلو القمح او بالة القطن بصرف النظر عن كلفة الانتاج . وهكذا ولدت الامبريالية بمعناها الحديث .

الاستعمار الجديد يتركز على سيطرة رأس المال الشاملة على الانتاج والتجارة ونوع السلع والأسعار وغيرها من مظاهر الحياة الاقتصادية . فاذا انتهجت دولة ، محصولها الرئيسي القطن او السكر ، سياسة معادية للاستعمار طرح ملوك المال القطن والسكر في الاسواق العالمية بأسعار تقل عن كلفة الانتاج . وعندها يكسد المورد الرئيسي لهذه العولة او تلك وتوجه الى اقتصادها ضربة خطيرة لا تستطيع ان تتحملها .

ومن نافل القول الاشارة الى ان مراحل الاستثمار تتوارث بعضها بعضا . وعندما نقول مراحل ... فنحن نعني فترات زمنية كأنما قطعت بسكين . اننا الآن في هذه الفترة التي تشهد اندفاعية رهيبية من الامبريالية ، نعثر على كافة الاشكال الاستعمارية ، كاحتلال العسكري للدومينيكان وفيتنام الجنوبية ، والاستعمار البشري في فلسطين وروديسيا وافريقيا الجنوبية ، الى الاستثمار المصرفي كما هي الحال في اليابان والمانيا الغربية - وهو احتلال مالي مباشر ، وفي دول العالم الثالث واوروپا التي تقع ضمن دائرة السعر العالمي الاميركي للمواد . ويعاني وطننا العربي من هذه الاشكال جميعها . فالخليج العربي شريط من الامارات الواقعة تحت الاحتلال البريطاني - باستثناء الكويت - وفلسطين تحمل على صدرها مايونين ونيفا من المستوطنين بدأوا بخراقة وتحولوا الى عدوان وشردوا السكان الاصليين تحت كل نجم ، وثمة اجزاء من الوطن العربي سلخت لتعطي الى دول مجاورة تما مؤامرة واضعافا للوطن نفسه ، كارتيريا واسكندرون وعربستان . ونضيف الى ذلك وقوع بلداننا العربية في قبضة الاحتكارات البترولية والمصرفية .

لكن اشد هذه الاشكال خطرا وضراوة هو الحركة الصهيونية المرتبطة عضويا بالاستعمار قديمه وحديثه . فهي تشكل حاجزا بشريا لتجزئة الوطن العربي ، ووجودها العدوانية يستنزف نسبا عالية من

اكتشفت اوروپا الآلة البخارية فقلبت نظام الصناعات اليدوية رأسا على عقب ، واصبح المصنع منطلق الوفرة والعمودية معا. وتحولت ملايين من القوى العاملة في الريف الى المدينة ، من القناة السى البروليتاريا ، وصارت مصدر الرفاه لطبقة متحركة اخرى . وكان لا بد للمصنع من اسواق تستهلك انتاجه فازدهرت التجارة عبر المنافسة والمزاحمة ، وقيمت المصارف الى جانب المصانع . وتوسع الانتاج وغازته شعرت البورجوازية الصناعية بالحظر يهدد اسواقها المحلية، وقام نظام الحماية الجمركية الذي افضى بدوره الى نشوء الحركات القومية في اوروپا . وانقسمت القارة الى قوميات متصارعة تحاول كل منها فرض سيطرة المصنع على الاسواق . لقد نجم عن هذا الوضع الجديد حروب ومنازعات ذهبت ضحيتها جماهير البروليتاريا ، وكانت البورجوازية الصناعية هي الراجح الوحيد .

لكن القوميات الاوربية خرجت من دائرة الصراع القاري على الاسواق الى دائرة اوسع هي العالم . وكان يرافق هذا الخروج نزعة نحو التوسع والمغامرة ، فبحثت في مناطق العالم المتخلفة عن امتداد يغذي نهمها وجشعها ، وهكذا نشأ الاستعمار ، وعند هذا الحد من التطور كان الاطار الرأسمالي للقوميات الاوربية قد استكمل ابعاده ، فحمل الى ما نسميه الآن بالعالم الثالث صراعاته وسيطرته ، وكانت الضحية الشعوب المتخلفة المغلوبة على امرها . وقد اقتضى ذلك كثيرا من الجهد الدعائي والاعلامي لافناع العامل الانكليزي او الفرنسي او الالماني ان عظمته رهن باحتلال الهند والجزائر وجنوب افريقيا . واستطاع الحكم البورجوازي الرأسمالي ان يقوم بالخطوة الاولى . جند آلافا مؤلفة من الشباب وقذف بهم في القارات الثلاث : اميركا وافريقيا واسيا . وصارت كل قومية تعمل لمصلحة طبقتها الحاكمة . وهجم الاستعمار فاحتل القارات الثلاث احتلالا مباشرا . وكان في اولى مراحل التاريخية احتلالا عسكريا ثنائي الهدف ، فهو اولا يخضع القطر المحتل ويحكمه مباشرة لبيد كل مقاومة فيه كما حدث في الاميركتين واستراليا ، وهو ثانيا - يجعل منه سوقا لتصريف منتجاته وموردا نابنا للمواد الاولية الرخيصة .

لكن استمرار الاحتلال العسكري في كثير من الاقطار كان امرا باهظ التكاليف . ونحن نعرف من تاريخ الجزائر ان قضية نفص اليد من الجزائر ، اثناء مقاومة الامير عبد القادر ، قد طرحت للبحث جديا : اذا كان الحصول على الانتاج الزراعي يكلف اصعاف ما يستفيد المستعمر فما الفائدة من هذه العملية وهي في الاصل عملية كسب ونفع ؟ هنا نشأت فكرة الاستثمار الاسكاني البشري ، وهي ليست فكرة جديدة . لقد طبقها الفرنسيون في الجزائر والاطاليون في ليبيا ، والانكليز في جنوب افريقيا وروديسيا واستراليا وكندا وما يسمى الآن الولايات المتحدة . واثبتت الاستثمار البشري انه ارسخ واقل كلفة . فالقيمون من البلد المستعمر يطردون السكان الاصليين من مدنهم وقراهم السى الصحارى او يمارسون عليهم عملية افناء وابادة . ومن يتبقى منهم يجعلونه عبيدا وخداما . وعبر هؤلاء المستوطنين المستعمرين تستطيع الطبقة الرأسمالية الحاكمة ان تصنع قوة قادرة على ادامة الاحتلال الى ما لا نهاية كما تصور المستعمرون في هذه المرحلة .

وهكذا ، فالليقظة القومية في اوروپا كانت هجوما علوانيا استهدف تأمين الاسواق واستنزاف المواد الاولية . وقد اغتبتها بقلبة نائية افتتحت عصر نضال الشعوب دفاعا عن وجودها . لقد ظهر فيما

محاولة اعطاء بديل كاذب شكلا ومضمونا . فهي لا تكتفي بشر الدعاية للعالم « الحر » وللديمقراطية الغربية وللثقافة الامبريالية فحسب، ولكنها تعطيها شكلا أيضا : اللغة الهيمنة ، تلك اللغة التي كثيرا ما تستعمل ليس كمنهج براغماتي وانما كصورة أيضا وكأحرف لاتينية . ولكي ندرك كيف تحاول الامبريالية تجنيد الثقافة في خدمة السياسة والحرب الاستعمارية يجدر بنا ان نستمع الى مساعد وزير الخارجية الاميركية السابق ، فيليب كوفر اذ يقول : « ان لكل من الوسائل السياسية والاقتصادية والعسكرية قصورها ، في حين ان المكون التعليمي « الثقافي » يمكن ان يدعمها بطرق شتى . واذا استخدمت بذكاء وحذق لا يمكن ان يحقق امورا تعجز عن تحقيقها الوسائل الاخرى . وهذا البعد - يقصد البعد الثقافي - يكسب السياسة الخارجية الاميركية حيوية متجددة وعمقا ومرونة » .

ولكي نجسد الامبريالية الاميركية هذا البعد في الواقع العملي فانها مصطرة الى استخدام كل المؤسسات العلمية والثقافية والنفوذ التي داخلها وبوجيها وما اكتشف اخيرا من سيطرة المخابرات المركزية على المنظمات الطلابية في العديد من بلدان العالم ، ثم على الاجهزة الثقافية كمنظمة حرية الثقافة التي كانت تصدر العديد من المجلات بتحويل المحابرات المركزية ذاتها ، وما اكتشف ايضا من سيطرة هذه المحابرات على جميع اوجه النشاط الثقافي الذي مارسته الولايات المتحدة في مختلف الاقطار مثل جمعية اصدقاء الشرق الاوسط ، او حتى الهيئات العلمية كالجوامع والمعاهد المنتشرة في اكثر من قطر عربي .. بل ذلك يؤكد مدى الاهمية التي تعطيها الامبريالية للنفوذ التي داخل عقول المتعلمين وربطهم عن طريق اجهزة تبدو ثقافية محضه بالمحابر التي ستفيد من ذلك مباشرة في توجيه السياسة الاستعمارية وتبوير المؤامرات والانقلابات . وليس من قبيل المصادفة ان تكون مؤسسة ( نورد ) مثلا هي من اشط الاحتكارات في المساعدة على بناء المؤسسات العلمية ، بل وحتى الجامعات في البلدان المتخلفة .

ان الاقنعة التي يخفي وراءها الدعاوة الامبريالية ، والاميركية منها بوجه خاص ، من الادعاء بحاربه خطر « الشيوعية » الى حماية الديمقراطية وحماية الفرد وحرية ، هذه الاقنعة لم تستطع ان تخفي في اي وقت الحقيقة الواضحة وهي ان الدوائر الاستعمارية تحاول ان تجعل من نفسها دركيا دوليا - ليس فقط في المجال الاقتصادي والسياسي - وانما في المجال الثقافي أيضا . ولكن هذه الحقيقة تخفي بدورها مضمونا عنصريا هو في اساس الثقافة الاستعمارية . انها عملية الوصاية على شعوب لم تنضج بعد ، عقلية الرجل الابيض اباندة والتي ما زالت الدوائر الاستعمارية تفكر من خلالها وتصرف داخل اطرافها .

وينشر هذا الفكر العنصري تحاول الامبريالية ان تشد الى صفها كل متقفي العالم الثالث خاصة اذا ما ادركنا ان القسم الاكبر من هذه البلدان ما زال يفقر الى بنية ثقافية عصرية وناضجة .

ولا تتورع الدوائر الاستعمارية عن استقلال كسل المعاهدات الثقافية والاتفاقات العلمية ، التي هي في الاساس جزء من التعاون الانساني الشامل من اجل التقدم ، عن استخدامها في سبيل التجسسي لصالح الحرب واثارة الفتن والاضطرابات والانقلابات . وهذا ما كشفته وثائق اعمال الوحدة الطبية « للبحرية الاميركية في القاهرة » التي كانت تقدم تقارير للبحرية الاميركية تحتوي على الكثير من المعلومات الطبية ذات الطابع العسكري ، خاصة في الحرب الجرثومية والوقاية منها وتطورها .

والولايات المتحدة في محاولتها تشويه الثقافة العربية ، وغيرها من ثقافات البلدان الاخرى لا تختلف عن ايسة دولة استعمارية اخرى الا في شيء واحد هو استقلال الثقافة عن طريق المخابرات في توجيه السياسة الخارجية الاميركية مباشرة ، وفي تبوير الحركات المضادة للثورة التحررية ، في حين لم تكن الدول الاستعمارية القديمة تطمح

موارد الامة العربية المضطرة للدفاع عن وجودها ومصالحها ، كما انها تثبت مصالح الامبريالية العالمية في اجزاء كثيرة من الوطن . ويردف الحركة الصهيونية محاولات الامبريالية لاقامة ائتلاف دفاعية توطد نفوذها ، والهاء الشعب العربي بدعوات رجعية مستترة بالقيم السماوية ، وبالمدون المتكرر المباشر الذي بلغ الذروة في حزيران ( يونيو ) من العام الماضي ولم ينحسر بعد .

ان وطننا هدف الامبريالية ، وطن يزيد مساحته عن عشرة ملايين كيلو متر مربع وسكانه يبلغون مئة مليون من البشر ، وموارده لا حد لها . ماذا يعني هذه الافهام عند الامبريالية ؟ انها تعني ولادة قوة هائلة في العام الثالث نهدد بتاييد التزوة التي تخم جيوب الرأسماليين ووطننا يستنجد الان بكل ما في شعبه من قوة وامكانيات ، خلال مقاومته الضارية للامبريالية .

### العزلة الاستعمارية الامبريالية :

اشرنا الى اشكال الاستعمار قديمه وجديده ولم نشر الى الشكل الثقافي لاننا اردنا افراد فصل خاص به . ان هدفنا هنا التوكيد على ان الثقافة الامبريالية هي دوما في خدمة الرأسماليين ، وتحليل الاثر الذي حلقته هذه الثقافة في وطننا .

لكي ندرك المضمون الواقعي للثقافة الامبريالية علينا اولاً ان نكشف عن المصالح الاساسية التي تحمي وراء هذه الثقافة . فالايديولوجية الامبريالية التي يصدرها الغرب الاستعماري مع رؤوس الاموال ومع الاحتكارات ، نيس لها في التحليل النهائي الادور واحد وهو التمهيد لهذه الاحتكارات وخلق كل الشروط الثقافية لدى جماهير البلدان المتخلفة لقبولها والدفاع عنها .

ان هدف الثقافة الامبريالية لا يمكن الا ان يربط بهدف السياسة الامبريالية ، اي بدعم النفوذ والسيطرة الاستعمارية . الثقافة تخدم السياسة والسياسة تخدم الاحتكارات وبادراكنا نجوهر الامتداد واتوسع الامبريالي يتحتم علينا مباشرة ان نكشف عن الايديولوجية الخاصة التي يحتمي خلفها هذا النفوذ وذلك الامتداد . انها الايديولوجية العنصرية ، مزينة بانخير من الالوان الديمقراطية والليبرالية وحرية الفرد والملكية الخاصة ..

فبدون نشر فتاعات خاصة لدى شعوب العالم الثالث ، فتاعات للتشكيك بالحاضر وبقدرة هذه الشعوب على تجاوز تخلفها ، لا يمكن للامبريالية ان تحافظ على نفوذها السياسي .. وبالتالي على مصالحها الاقتصادية . ومن اهم هذه الفتاعات نشر ما يمكن تسميته لدى علماء الاجتماع الاميركان ب « العقلية المتخلفة » العاطفية والمتعارضة مع العلم اساسا ومع النهج العقلي . وليس من المستغرب بعد ذلك ان تكون الدوائر الاستعمارية هي الدوائر المبادرة الى اخذ التراث الثقافي العربي وشبهه مركزا كل التركيز على الفكر الصوفي - المضاد للعقل - من هذا التراث دون ان يلمح الى ان هذه العقلية لها خصائصها المحببة والمستحسنة ايضا . ولكنها وهي تقوم بذلك لا تتجاهل كسل الجوانب الايجابية - العقلية والعلمية - في التراث العربي فحسب ، وانما تعمل ايضا على طمس هذه الجوانب وربطها بتأثير الثقافات الاجنبية واليونانية بشكل خاص .

وتأخذ الحرب الثقافية الاستعمارية اهمية خاصة وفعاليتها كبيرة نتيجة للظروف الاجتماعية المتخلفة التي تعيش فيها شعوب العالم الثالث ، فتضرب على وتر الصراعات العشائرية والطائفية والاقليمية ، وتمارس شتى انواع الضغط على المتقنين المستنيرين والتقدميين الذين تزداد اهمية دورهم في ثورات بلدانهم مدركة مدى نفوذ حسنة الطلاب والمعلمين وبقية فئات « الانتلجنسيا » التي تشكل دون شك القاعدة العريضة لمعظم الحركات الشعبية الثورية في العالم الثالث . ومن هنا تأكيد الامبريالية وفي مقدمتها الامبريالية الاميركية على ضرورة العمل باستمرار في صفوف المتقنين وعلى الجبهة الثقافية من اجل نشر ايديولوجية النفوذ الاستعماري لدى بعضهم ، ونشويه ومحاربة الثقافة التحررية الاشتراكية في صفوف الفئات الاخرى ،

الى اكثر من ضرب الثقافة الوطنية ببقية تهديم البنية القومية ومحوها في المستعمرات .

وليس من قبيل المصادفة ان يحاول علماء الاقتصاد الاميركيون وهم يعدون نظرية للقضاء على التخلف في العالم الثالث - التاكيد الدائم على ان العامل الاساسي هو العامل الثقافي ، في تجاوز الوضع المتخلف . الا ان ذلك يخفي حقيقة خطيرة ، حقيقة دور الامبريالية في تخلف الشعوب وهذا ما يثير قضية جديدة . ذلك ان الفكر الاستعماري الهادف الى المحافظة على قوة الاحتكارات ونفوذها في العالم ، قد دخل فعلا في حقل البحث العلمي الاقتصادي والاجتماعي وهو يقدم نفسه الى الشعوب الناهضة على طبق من فضة ، وتحسب عناوين واسماء براءة لعلماء الاقتصاد والاجتماع المشهورين . ويمكننا اجمال الخطوط الرئيسية للفرد الثقافي الامبريالي في المظاهر التالية : جند الفزوة هم المكتبات والافلام ، الصحف والمجلات ، الكتب ومؤسسات الترجمة والنشر ، البعثات والمنح الدراسية . وتبدل الامبريالية كل ما تستطيع من جهد من اجل تدعيم المراكز الثقافية ومكاتب المعلومات ومؤسسات مثل مؤسسة فرانكلين مثلا ، التي عملت منذ نشوئها على محاربة الفكر الاشتراكي وشراء المثقفين . وتعمل هذه الوسائل وفق خطة محكمة وراء غايات ظهرت تحقيقاتها في وطننا على نحو جلي . فهي قد تناوت التراث وقدمته اما مشوها او من منطلق رجعي واستطاعت بذلك ان تحقق نفورا عاما منه او تناولا مرضيا له . وعبر اضطراب المتف العربي ازاء ثقافته القومية . او النظر اليها نظرة حسنة ترجسية لا تنفق ومنطلقات العصر العلمية ، طرحت الثقافة الامبريالية بديلا عربيا في توب سيبب واغراءات لا حد لها . لقد استطاعت ان تخاطب الجانب الرحو من شخصية المتف العربي وتبره بالعنايات الفردية والذاتية فمزنه زما عن غناء امته ومصالحها .

وقد اغرت هذه الوسائل ما يسمى بالقوة الفكرية فحملتها الى المجتمعات الرأسمالية لتلقي العلم والاختصاص فمنها من عاد بمفاهيم واخلاق ليبرالية الى وطنه وكان بالضرورة سندا للامبريالية متعاطفا معها وضعيفا امام هجومها المستمر ، ومنها من بقي هنالك وخسره شعبه . وان ظاهرة التربية والتثقيف في معاهد القرب لتخريج حكام المستقبل في دول العالم الثالث ، ظاهرة ابتليت بها هذه الدول كافة . كما ابنت بالامتصاص المستمر للنخبه التي كان مفروضا ان نفوذ الامه في دروب النضال والتقدم . وقد خلفت الثقافة الامبريالية نوعين من الشخصيات كلاهما لا غنى عنه . النوع الاول يندرج في ما نسميه بظاهرة النكوص . فبعض من تعرض للتأثيرات الامبريالية المبرمجه احس بخطر الدوبان والتلاشي . وكانت ردة الفعل عودة متفوقمة الى مفاهيم وقيم ومعان عطلها الزمن او طمرتها الاحداث فلم تعد حقيقتها الناصعة تبين او شوهدت الامبريالية اصلتها من غير ان يدري . ووجدت الرجعية العربية متنفسا لها وحجة عندما تصدت لتيار التحرر القومي الاشتراكي ان تدافع عن هذه القيم والمعاني والمفاهيم في صورتها الحاضرة ، وتستتر عجزها عن فهم عصر العلم والتكيف معه .

والنوع الثاني من الشخصيات يندرج في ما نسميه بظاهرة الانخلاع . كثيرون هم الذين رفضوا كل شيء . رفضوا التاريخ العربي والشخصية العربية ، والعروبة جملة وتفصيلا . وظهرت لهم دعوات ندعوها مرضية اهمها الدعوة الافليمية وتظاهرات اهمها استيراد هموم انسان المجتمعات الغربية وسليبيته . ان الدعوة السليبية بالهجمات المحلية احدى نتائج هذا الانخلاع ، والاستفراق فسي الجنس والخمر والمبت نتيجة ثانية . ومرة اخرى افادت الرجعية من هذا التيار لتبرر نفسها . ونشأ الصراع بين الانجاهين الغربيين ، ليهدر طاقات ويلهي جماهير المثقفين عن قضيتهم الاساسية . والسليبية جانب هذين النوعين من الشخصيات نشأ نوع ثالث هو الشخصية الوامية الايجابية . لقد استطاع كثيرون من ابناء هذا الوطن النجاة من متهاتي النكوص والانخلاع وكونوا لانفسهم رؤية ووجهة نظر ،

وتبنوا قضية . وعلى هؤلاء بالدرجة الاولى يقع عبء مكافحة الامبريالية ككتاب ومثقفين .

### موقف الاديبي العربي :

نحن نرى في الاديبي ممثلا للطبقات الشعبية الكادحة ، بلورة شعبية . لقد ظهر جيل من الاديبي تكلم باسم البورجوازية وانطلق من مفاهيمها وبشر بقيمتها وتقاليدتها . لكن هذا الجيل لم يستطع ازاء الهجمات الامبريالية المتوالية ان يسهم في تيار الثورة الجماهيرية التي تصدت للامبريالية . فهو بحكم تأطره البورجوازي ظل غريبا عن قضية النضال القومي التي هي بالدرجة الاولى قضية الشعب الكادح ، او انه في افضل الحالات تبنى موقفا تطوريا ليبراليا يتناقض والموقف الثوري الذي فرضته حتميات التصدي للفزوة الامبريالي الصهيوني . ان ما نضيه بالاديبي في مواجهة الامبريالية هو الاديبي المتمثل لهموم وتطلعات سواد الشعب ، المتكلم باسمه والراصد لموجات نضاله . وهو في هذا الديدان يضطلع بمهمتين اساسيتين ، الاولى مشاركته الفعلية والحاسمة في النضال السياسي والاجتماعي لشعبه ، فالاديبي ليس متفرجا ، ولا هو شاهد وحسب . وحياته لا تكتسب معانيها وقيمتها الا بالممارسة . الممارسة وبعدئذ الشهادة . وفي حدود امكاناته الشخصية يستطيع ان يأخذ دوره في معركة وطنه ببدء بالتبني الموضوعي لهده المعركة ووصولا الى النضال الشعبي المسلح .

المهمة الثانية هي تكريس الاديبي اتناجه لتقديم نماذج ثورية مكافحة عبر الزمان والمكان . ان المعاني والقيم العالية الانسانية والجمالية نبتق من نضال الشعوب لتحرير ذاتها وطاقتها ولتنظيم الاستعمار فلسفة ووجودا . لقد رأينا كيف طوقت الامبريالية العالم عسكريا وبشري ثم اقتصاديا وسياسيا وثقافيا . ورأينا ان انهاء عصر الامبريالية ليس فرض كفاية ، وانما هو واجب محتتم على جميع الشرفاء . ان الاديبي في هذا المحتوى وهذه الظروف ، لا يسعه ، وهو ضمير امة وصوت نبوة ، الا التفلط عميقا في وجدان امته المضطرم وتجارب حياتها المنكسة والظافرة .

ولعل سائلا يسأل : السنا ضمن هذا الخط نقع في تحديد معالم الاديبي وتوجيه قسري لانناجه ؟ وجوانبا عن هذا السؤال ، ببساطة هو : كلا . ان النضال ضد الامبريالية ليس نزهة في الزمن وتيار الحياة قد تفضلها نزهات اخر في الجمال والآلسة ووحدة الاسنان . نحن ، وجميع شعوب العالم الثالث ، نعيش مخاضا حضاريا ونعاني من تدخل قوة خارجية معادية تحاول اجهاض ولادتنا الجديدة . ان معنى حياتنا واستمرارها ومفتاح مدينة التجارب الخالدة رهن بالتصدي للامبريالية ودرحها . وهذه النماذج ، الفردية او الجماعية ، التي تعانق معركة حماية الذات وايلادها هي الجديرة بسجل الادب لانها الحركة الوحيدة المعبرة عن عافية الامة وجريان التاريخ . انه عالم رحب ، فيه تشهد الانسانية لأول مرة شعوبا باكملها تعبر عن شخصيتها ضمن اطار عالمي من المشاركة ووحدة المصير ، وفيه تشهد الانسانية لأول مرة عملية تظهر فردي وجماعي عبر صراع محتتم ومباشر مع القوى المعادية ورواسب التخلف في الذات القومية .

ان توكيدنا على هوية الاديبي الشعبية يعني اننا نرفض شعراء البلاط وحكايات الجنس والحب الخائب والانتاج الترفيبي المسطح . وهو يعني تصاعف مهمة الاديبي وشمولية رسالته . وفي رأينا ان موقف الاديبي ، انطلاقا من هذا التصور يتخذ مجاري ثلاثة :

مقاومة الفزوة الثقافي الامبريالي ،

التحرر الذاتي ،

تقديم التراث تقديما ايجابيا .

رأينا ان الامبريالية تستخدم لادامة سيطرتها على العالم اسلحة ثقافية فعالة . ورأينا ان هذه الاسلحة تشمل الافلام والكتب والمجلات والصحف والنشرات واجهزة الامم المتحدة والمراكز الثقافية والمنسج الدراسية والمدرسين . وتعتمد الامبريالية كذلك لى افكار شعوب العالم الثالث من مثقفها بامتصاصهم او خنق مواهبهم والى تشويه تراث الامم وتقديم بديل كاذب تخلفه هي وتفرضه .

أن محاولات التأليف بالفرنسية أو الإنكليزية أو اللاتينية مظهر من مظاهر نجاح غزو الإمبريالية الثقافي لشعبنا . وإن الدعوة السليمة نبذ العربية الفصحى والانصراف عنها إلى اللهجات العامية الإقليمية مظهر آخر . الشعر الطويل المنفوش ، والعبث ، واللامعقول ، والضياع والغربة ، والجنس ، والسأم ، والبطل الذي لا يقهر ، واسطورة الرجل الأبيض ... كل هذه مظاهر أخرى لنجاح هذا الغزو .

ونحن في مقاومتنا للهجة الثقافية الإمبريالية ننتقل من فكرة أساسية : أن وطننا لم يستقل إلا استقلالاً جزئياً وإن آخر ما يرحل من مخلفات الإمبريالية هو ثقافتها . وفي وجه البحر الزاخر للثقافة الإمبريالية نجد أنفسنا معرضين للضياع كشخصية وقيم ونفسال . والاديب مطالب بدخول معركة اثبات وجوده وتوكيد ذات قومية نامية . إن مهمته الكبرى تقديم نماذج مضادة واصلية تعيش إبعاد الثورة ومتطلباتها . فليس « غودو » الذي ينتظر ما لا يجيء مثالا ولا هو يمت إلى محمود حجازي وثروة عبد الهادي . و « دينو » بطل السأم الذي ينتهي إلى المستشفى إثر حادث سيارة ليس مأزق أبو غزالة الذي سقى بدمه تراب فلسطين ، وشعبنا ليس شعب خرايت يرسلها يوجين يونيسكو في شوارع المدينة . لقد قُدم العقل الإمبريالي شخصية أخرجتها مصانعه ، هي مزيج من دينو وغودو والرجل الأبيض والخنافس ، وطرحها في السوق العربية ، وهو في هذا منسجم مع مخططة الشامل في ملء الفراغ الذي زعم وجوده في المنطقة وكما كان رد القوى التقدمية حاسما وفوريا على مشروع ملء الفراغ السياسي في وطننا ، ينبغي أن يكون ردنا على محاولة ملء الفراغ الثقافي .

ولهذه المهمة التاريخية ، كما لمهمة المقاومة السياسية للإمبريالية ، طريقان هما : التصدي والبناء . إن وطننا غنسي بالادباء المتنازسين ، وغني أيضا بالمجلات والنصح التي تعنى بشؤون الأدب والفكر . ويمكننا أن نخلق أكثر من منبر لتتشرح آبنية أسامة للثقافة الإمبريالية . ونحن هنا لا نرغب باقصاء الفكر الإمبريالي ، لأننا لا نريد أن نفض العين عن عدونا . على العكس ، نريد أن نستفرقه بحثا وفهما لنعرف كيف ينصيد عقولنا ومواقفنا ويحرفها نحو الاتجاه الذي ترسمه له مصالحه .

على أننا ينبغي أن نكون مزودين بوجهة النظر ، أن الاتهام والادانة المجانية لا يحوان أنرا ولا يردان ضرورة . كما أن البحث العلمي في معطيات الثقافة الإمبريالية أقدر على اظهار الوجوه الشائنة والرامي الهدامة لهذه الثقافة . لقد رفضنا البورجوازية والاستعمار بكل أشكاله . ومن هذا الرفض ندرس ثقافتها ونرد عليها . وجهة نظرنا هي الرفض ، لا التجنب . التحليل ، لا التسم . وجهة نظرنا فسي الإنسان أنه كائن متاصل بيني وطنا ، وفي الأدب أنه تعبير عن هذا النضال . إن كل أثر تقدمه الثقافة الإمبريالية يحمل صك نفيه عن الوجدان العربي . ويستطيع الأدب أن يلج إلى هذا الميدان من بوابة واسعة . علينا عندما نترجم مسرحية تينيسي ويليز أو يوجين يونيسكو أن نقدمها في إطار نقدي مبني على وجهة نظرنا نحن ، وعندما نقدم بحثا لجون ستراتشي أن نرده إلى المنطلقات البورجوازية والرأسمالية التي صدر عنها . إن رسالة الأديب في هذا المضمار هي أن يعيد تقديم الأدب الذي تحاربنا به الإمبريالية العالمية وتقييمه بمقاييس قومية اشتراكية . وتجدر الإشارة هنا إلى التقصير الواضح في كيفية تقديم هذا الأدب ، وهو تقصير افاد مخططات الإمبراليين وسهل لها النجاح . إن مهمة النقد غير كافية . قلنا إن لمقاومة الغزو الثقافي الإمبريالي مسارين : التصدي والبناء . ونحن مطالبون بتقديم بديل للثقافة الغربية يكون في الوقت نفسه نموذجا لاصالة شعبنا ونضاله وصلته بعمره التاريخي . لقد خلفت الثقافة الإمبريالية ، كما أشرنا ، ثلاثة أنواع من ردود الفعل : النكوص ، والانخلاع والموقف الواعي ، ورسالتنا هي في الهجوم على موقف النكوص والانخلاع وتقذبة الموقف الواعي . نحن نحارب الثقافة الإمبريالية بمحاربة آثارها . وعندما نكتب ينبغي أن نفكر في هذه المواقف الثلاثة وأن نتجه في جملة ما

نتنتجه ، إلى اصحابها . إن لكل منها معطى سلوكيا وأخلاقيا بنا ، لا بد وأن تنعكس آثاره على مسيرة الأمة ، وهذا ما يجعلها عوامل فعالة سلبا وإيجابا ، في علم الأديب الخاص .

إن أفضل ما تحارب به مخلفات الثقافة الإمبريالية وضغوطها المستمرة على وعي الجماهير هو تقديم نماذج عربية نضالية . مطلوب منا أن نحارب تشكل هوية مزورة ، أن نحارب اليأس والمغامرات المرضية ، وأن نقدم حياة هذا الشعب الذي يتصدى في حدود إمكاناته ووعيه لاقوى قوة عرفها التاريخ وأكثرها تعقيدا فسي المخططات والاساليب . إننا لن نحدد النموذج العربي النضالي فهذا أمر يعود إلى اختيار الأديب ورؤيته ، ونعتقد أننا جميعا نملك صورا متشابهة أو متقاربة .

إن إنتاج الأديب عملية توعية في حد ذاتها ، فهو معلم ، ونموذج ، وقائد . والشعب ينتظر منه إنتاجا منيرا .

إن عملية البناء القائمة في جميع مجالات حياة الأمة ينبغي أن تمتد إلى عالم الثقافة . فكما نبني مصنعا وسدا ، ينبغي أن نبني ادبا خلافا يصنع ثقافة الأمة ويفسح سدا أمام التآمر الثقافي الإمبريالي على وعي شعبنا .

إن مقاومة هذا التآمر تفترض أن يكون المقاومون على مستوى جدير من التحرر الذاتي . ربما تأثرنا نحن أيضا بالسأم والوحدة والعبث واللامعقول . ربما بقيت في نفوسنا شروش من الواقع الذي ترنا عليه لا زالت تحجب عن أعيننا بعض الرؤية الموضوعية . لقدس تفتح وعينا على قراءات غير منظمة ، فيها الفث وفيها السمين ، فيها ما يخلف انطباعات ومواقف متناقضة مع قضية لم تكن قد عرفنا بعد ملابساتها ، ومنها ما جعل بعضنا يفترق أو يفقد هويته أو يتعبأ بهوم انسان المجتمعات الإمبريالية .

ولا نبالغ إذا قلنا أن أكثر قراءتنا كان منصبا على ادب الإمبريالية . إن رسالة التحرر الذاتي تتطلب موقفا من النقد الذاتي . ولما كان الأديب ضمير شعبه ، فهو مطالب بتعربة نفسه من الطفيليات وتقويمها . إن نظرة خاطفة على إنتاج الأدباء في الوطن العربي تطلنا على تآمر عميق بفكر وفلسفة الإمبريالية . ولقد كانت المارك الإديبية تشب ، وإلى زمن طويل بين أدباء كبار حول افضلية الثقافة اللاتينية وافضلية الانكلوسكسونية . ومن بيننا جماعات أدبية اتخذت أسماء اغريقية أو أوروبية . ومنا من ذهب إلى أبعد من ذلك ، فنفي أن تكون للعرب ثقافة عالية أو جدية . جميع هذه المواقف يعمل فسي خط مضاد للنضال المتواصل ضد الإمبريالية . لقد اكتشف المثقف العربي بوجه عام ، والأديب العربي خاصة ، بعد عدوان الخامس من حزيران ( يونيو ) حقائق رهيبية . أين انتهى الإعجاب بغربة ميرسول وغيشان روكانتان وامراض اللامنمي وانتظار غودو ؟ العبث واللامعقول واللائتماء وبقية الطروح الغربية ؟ ماذا فعلنا بهذا الوطن وإلى أين اودينا بمعانيه ؟ لقد حقنا كثيرا من عروقنا بافرازات العقل الاوروسي والاميركي . تكلمنا عن جنس تينيسي ويليز وبيبات ت . س . البيوت ، وفي الرمز والزمن والغيبية ، واشياء كثيرة كنا نغطي بها هشاشة تفاعلنا مع الحياة العربية وثقافتها إيماننا بقضايانا . كان الخطر يقرع بابنا فنحسبه موسيقى . والسديم يقشأ عيننا فنحسبه رؤيا . لم نعيش وكتبنا عن الحب - لم نتألم وكتبنا عن المعاناة . لم نتنج ما نريد ومع ذلك تبجحنا . كل ما كتبناه انتهى إلى جرم وتفاعس . والا فإن الوطن من كل ما كتبناه ، أين فلسطينه وخليجه ورجميوه ؟ لقد ضاع كل شيء وراء عربة أسما الرغبة ، في الكتب والسينما والمسرح التي نقلتها إلينا رياح الغرب بأيد عربية . لقدس اخرجت ثقافة الغرب الإمبريالية الكثيرين من دائرة تاريخهم القومي . ابتلعهم من ترابهم واطلقهم في عالم جامح ، عالم يضربه سوط القوة ووهج الترف وبطر الحدود المخلمة بوجه عقل كسول مل من ذاته . وشعرنا أن علينا تقع مسؤولية البدء والنهاية ، التبل والبعد ، والتبض على أطراف الكون

التتمة على الصفحة ١٢٨



وتوهينا اننا صرنا ابطالا عندما ففز وجداننا ليظوف الزمن والعالم . صرنا نحس بالخجل او الارتباك اذا تعرضنا لامور مدبرة مثل ماساة فلسطين ، وبالخوف من أن ندان أو ننكس اذا اخترقت نظرتنا مداميك الخلف والزيغ في ذواتنا . خرجنا من النصف الثاني للقرن العشرين الى الابدية ومن جمر وطننا الى مرجل الغرب . وانتهينا الى ان نتفرج على الاحداث وصناعة التاريخ ، لنطاق فيما بعد احكاما في غرفة مغلقة . صرنا في الخارج . تلهينا بالخمر والليالي الطويلة وقرأة الاشعار وحسبنا ذلك حياة . اردنا تحقيق الذات فرفضنا كل شيء وضرنا بسيف الادانة المقصورة كل قدم تفرقت على الطريق الصحيح . وهكذا نجونا .

نجونا لانهم في الغرب يبررون ذاتهم بهذه الطريقة . التاريخ هناك ليس ملكهم . سارترا لا يساوي شيئا عند رينو وروتشيلد . ارثر ميللر لا يساوي شيئا عند روكفلر وفورد . لهؤلاء طنين وللآلات طنين وكل شيء بحساب . وهكذا يخرجون من دائرة التاريخ ويرسلون اليها ليخرجونا . في الغرب لا احد ينتظر غودو الا صاموئيل بيكيت ، ولا احد يرحل مع يدليسيز الا جيمس جويس . انهم ينتظروننا تربعا ويرحلون الينا استعمارا وتشريدا وافناء .

نحن هنا لنمون او نبدع لا لتبحث عن المعاني السابحة في السماء. الزمن لم يترك لنا فرصة الاحاطة بالعالم كما تريد ثقافة الغرب . نحن لم نخلق للفثيان ولا لنهاية اللعبة . حياتنا تطرق الابواب والنوافذ وبوسعتنا ان نخرج لمجابتها . لا بأس اذا لم نحقق المعجزات التي تتجاوز حدود التاريخ . سنعرف على الاقل دورنا ومكاننا وقيمة عطائنا . قد لا نحمل صخرة سيزيف بل نكتفي بازاحة حصاة عن الطريق . وقد يسقط اهتمامنا ببحث بودلير عن وسيلة لاختفاء الانسان فذلك لا يهم . المهم ان نعود الى مرحلتنا ونفصد العروق الميتة التي تقعدنا عن الحركة . واذا لم نستطع ان نفسر العالم ونجد حلا لمشاكل الانسان الدهرية فلا بأس . يكفي اننا لم نترك ابناءنا في المكان نفسه الذي سلمه لنا اباؤنا بل مضينا بهم خطوة او خطوتين الى الامام .

انا مطالبون بتصفية جميع هذه الاوشال التي خلفتها الثقافة الامبريالية ، حتى باعادة النظر في رؤيتنا للواقع الموضوعي . ليس فقط ان معاناتنا وتمثلنا لهذا الواقع قد مال الى منظور قريب من الامبريالي وانما اننا لا نزال نحتفظ في ذواتنا ببلل عصرنا وشعبنا . بعضنا تسمه السلبية وبعضنا تسمه الاقليمية . وبعضنا الاخر يسمه الكسل وقلة الانتاج . ونحن في هذا نشترك مع قطاعات واسعة من الجماهير لم يتسن لها بعد تحريك جماعي والهَاب لكافةطاقاتها الكامنة . ولسوف تصطلم رسالة الاديب وانتاجه بهذه المناريس طالما هو يتخاشها وينصرف عنها .

ان تقديم نماذج نضالية عربية لا يستبعد نماذج من النوع المضاد، النماذج السلبية او الاقليمية او الكسولة . ذلك ان بث الوعي — وهو جزء من رسالة الاديب العامة — ممكن بالتشخيص الفني لآفات مجتمع لا يزال يوضع بين المجتمعات المتخلفة . والنضال ليس فقط احراز مكاسب وانتصارات وانما هو معركة الانسان مع ذاته لاستيلاء انسان جديد . ان الكتابة عن ساكني الكهوف وعقليات بيت الطاعة والحرير، هي ايضا كتابة نضالية . وهي معركة نخوضها ضد الامبريالية مباشرة لان العقل الرجعي هو العميل الطبيعي والحليف الافضل للاستعمار . في بلادنا رجال عقولهم مربوطة بالمسبحة ، ونساء لا ترى وجوههن الشمس مباشرة ، واطفال يذترهم البرد والحر وتمتصهم حياة الازمة . في بلادنا يهدر الزمن وتسترخي الامكانيات والطاقات امام نرجيلة او كأس او فيلم سينمائي . هؤلاء وليس غودو او ماتيو او يولييسيز ابطال حياتنا . نحن نعيش في مجتمع يتمخض عن ثورة حضارية شاملة . انساننا ينطلق نحو الافضل ، بينما انسان المجتمع الامبريالي يعاني من

اعياء ضمير انقله تاريخه بالاستعمار والعبودية ورأس المال . ان دعوتنا للتحرر الذاتي تعني الانصراف الى انسان العالم الثالث وشعبه . لقد ثبت لنا بالتجربة ان محاولة تقليد الصورة المتفوقة لانسان العالم الامبريالي لم تورثنا تفوقا ولا وعيا . ان جذورنا ضاربة عميقا في تربة لها نكهة العروبة وسلسلة مجيدة من الحضارات، وهي ما ينبغي ان يكون عالم اقلاننا الرحب . ان اول ما نلتقط منسبه وعي للشروط البشرية والمرحلة التاريخية الراهنة في وطننا . نحن شعب متخلف تواجهه قوى عالمية تريد ابتفائه حيث هو او افنائه . وفي هذا المضمار امامنا عمل كثير ، وتجارب عالية ترضي توق كل منا الى تقديم الافضل والابقي .

تمة جانب آخر من جوانب التحرر الذاتي في شخصية الاديب وشخصية شعبه ، هو تعميق الحس الاشتراكي القومي . ان رسالة تقديم البديل تقتض ذلك بالضرورة . لقد قدمت الامبريالية نموذجا سائها وكاذبا للانسان وارادت ان تبثه في واعية شعبنا . وقد قدمت الرجعية العربية نموذجا آخر مقلدا سكونيا ومتخلفا وحاولت ان تبثه ايضا ضمن مقومات واطر روحية وتاريخية احسنت استغلالها . واذا اعتبرنا ان الامبريالية والرجعية وجهان لكتاب واحد — وهما كذلك — ظهرت امامنا ضرورة تقديم بديل يحافظ على شخصية الامة الحية الاصلية ويكفل تطورها وتفجير طاقاتها . نحن نعتقد ان انسان الحاضر والمستقبل العربي هو الانسان القومي الاشتراكي واننا نطمح الى اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد . هذا الاعتقاد يزودنا بوجهة النظر بأسلوب الحكم والمعالجة . واذا ما قدم الاديب نماذج ، فانطلاقا من قربها او بعدها عن صورة النموذج القومي الاشتراكي . حتى عندما نكتب عن الجوانب السلبية والمتعقلة ينبغي ان يكون رائدنا تعميق هذا الحس القومي الاشتراكي . قد لا نستطيع نحن او بعضنا ان نحارب الامبريالية والصهيونية بايدينا ، لكننا نستطيع ان نسهم في اعداد شعب يفعل ذلك .

ومن الملاحظ ان نموذج القومي الاشتراكي ، والنموذج المضاد غائبان تقريبا من ادبنا . نادرة هي الآثار التي تسعى لخلق هذه الصورة وجعلها محورا ادبيا عاما . ولا يستعنا طبعنا الا الاعتراف باننا قدمت هذه الصورة ، والتصفيق لها . ان طرح هذا النموذج جانب من جوانب رسالة الاديب في مقاومة الامبريالية . ذلك ان ابراز شخصية عربية جديدة وخلقها في صميم الواقع العملي المتحرك يعنيان بدء الانتصار المستمر على قوى الامبريالية فالامة لا تستطيع ان تحارب بشخصية مهزوزة او معدومة . وعلى الاديب ان يسعى ايدا لخلقها في انتاجه وفي سعيه لاقامة وحدة عربية اشتراكية .

ان المجتمع العربي الاشتراكي الموحد ليس خروجا على التراث ، كما تصوره الامبريالية وحلفاؤها وتحاول ايها الجماهير العربية بذلك . لكن الامبريالية وحلفاها دانبا على استغلال التراث وتقديمه على انه مناف للاشتراكية . وان النجاح الذي احرزاه في هذا الميدان يعود الى سببين : الاول هو توقف تراثنا عن النمو والتطور ، بحيث تقوقع وانغلق على ذاته طاويا في ذلك روائه التي اعطت للعالم احدى حضاراته الخالدات . لقد دخلت الى تراثنا بذور الرجعية والعتالة ، وبمرور الزمن انفصل الذهن الشعبي عن فهم معانيه وتطويره . وهكذا صار سهلا ان تستخدمه الامبريالية وحلفاؤها سيفا مصلتا في وجه مسيرة النمو والتقدم .

والسبب الثاني هو تقصيرنا في تقديم تراثنا تقديما ايجابيا ونشاط الامبريالية وحلفاها الضخم في تقديمه تقديما سائها . لقد اذكت الامبريالية وحلفاؤها الروح الطائفية والعصية الدينية، وقسمت حضارات وطننا عبر التاريخ الى ظواهر منفصلة وجعلت منها تاريخا قوميا لكل قطر : الفينيقية ، الفرعونية ، البابلية والاشورية ، الارامية . وعندما وصلت الى حضارة الاسلام اعتبرتها رسالة دينية بحتة ونفذت من خلال ذلك الى غرس حس طائفي ما زالت تستقله حتى الان . ان امام الاديب مهمة ضخمة وعظيمة في تخلص تراث امته من

المفاهيم التي الصفاها بها الاستعمار قديما وحديثا ، وفي تقديم هذا التراث بتفسيرات علمية تقدمية وأسقاط الجوانب الميتة منه . نحن لسنا وحدنا في وجه تآمر الامبريالية على تاريخنا . جميع شعوب العالم الثالث مثلنا . وان اسقاط الجوانب الميتة منه علمية لن يأسف لها الا الرجعية لانها احد مصادر رزقها وبقائها . ان تقديم التراث بتفسيرات علمية تقدمية يصلنا به على سمو اعمق وافضل واتسوعيا . لقد حفل تاريخ شعبنا بتجارب انسانية وقومية ممتازة هي بالنسبة لنا الآن منارات على الطريق الصعب . وليس علينا الا ردها الى اصولها الشعبية لكي ننتزع من ايدي الامبريالية وحلفائها سلاحا ماضيا .

نحن متهمون بالاساءة الى تراث امتنا ، بالتكبر له وبالخروج عنه واهمائه . والامبريالية ترسل عمالها وراعنا ليتصيدونا في سلوكنا اليومي ويشهروا بنا في صحفهم ومجلاتهم . ان ردنا على هذا الاستغلال البشع بحضارة صنعها شعبنا يكون بفهم واستيعاب هذه الحضارة وابرارها على حقيقتها العلمية الناصعة . نحن ورتنا حمورابي واخاناون ومحمد ( ص ) وليست الامبريالية والرجعية . وينبغي ان تبقى على موقفنا الصامد تجاه جميع التيارات انسلابية التي لحقت بتاريخهم ففطنه وظهرت جذوره ورسالتنا تتعدى نيش تراثنا من الظلم التي زجته فيها الامبريالية والرجعية ، الى وصله بحاضرنا المضطرب ووضع جذونه في مجمر ثورة ثقافية شاملة واعية .

ان اقوى ضربة توجه للامبريالية وحلفائها ، مما يستطيع الاديب توجيهه هي الهب الترات من جديد الهبا يفذي ثورة الانسان العربي الحاضرة . ان حرق النماذج البديلة التي تطرحها الامبريالية في السون العربية وتجريد العدو من اسلحته الثقافية متوفقان على مقدار نجاحنا في اذكاء قدرة العقل واحسد العربيين . ونعتقد اننا في غنى عن توكيد ضرورات الثورة الثقافية ، فنحن قبل كل شيء ، نعيش ونصنع ثورة ، بعضها الثقافة ورسالتنا هنا هي تعميق الفكر الثوري والسلوك الثوري ، وطبع حياتنا في جميع حالاتها ومواقفها بموقف ثوري عميق اذوي عميق الايمان . وفي تراثنا تلك الجذوة الضرورية للوجدان العربي في انطلاقة الحضارية المعاصرة . كان حمورابي ثورة واخاناون ثورة ايضا ، وكان محمد نورنا الكبرى . تاريخنا حافل بالثورات والتجديد والتقدم في آفاق العالم الرحبية . وان ما علينا ان نفعله هو توكيد ذلك وتجديده .

## الالتزام :

يفضي بنا الحديث الى مشكلة الالتزام . ونقول مشكلة لان الواقع الراهن يعيشها على هذا النحو . فمن اختلاف التفسيرات الى اختلاف المواقف ، الى المهاجمات والانتقادات ، تفقدت قضية الالتزام . وبهنا هنا ان نتصدى لموقفين لهذه القضية : هما موقف الامبريالية والبورجوازية الرجعية في وطننا ، وموقف السطريين .

تصور الامبريالية الالتزام في البلدان الاشتراكية على انه هراوة عقائدية تستخدمها السلطة لتقمع الاتجاهات غير الملتزمة بسياستها . وتجعل من مبدأ الالتزام بالشعب صيغة فاشستية تبسرس السجن والتشريد والملاحقة . ان هذا التصوير متوقع ومنسجم مع غايات الاستعمار ومراميه . فهو لا يريد لاية حركة شعبية ان تنجح في تنظيم نفسها او تقديم عطاء جدي وهو يعزف على وتر الحرية لمعرفتها بانها تنقلب في البلدان المتخلفة الى فوضى وهدر وتزوير . وهو يخاف من ايما التزام شعبي تقدمي سياسيا كان ام ثقافيا ، لانه فسي النهاية سيقتضي على مصالحه وسيطرته . انه يريد من الاديب العربي ان يجلس في المقهى ويعلك الانهام والادانة ، فاذا ما حل الليل عمد الى زجاجة خمر ويجلس في مكان ما منتقدا او مهيدا او يائسا . الامبريالية تعرف ان الالتزام بالنسبة للاديب العربي بوصلة في الضباب ، انه سيجعله عاكفا على ذاته وشعبه يستنبتهما ويستولدهما بعيدا عن الارتجال والسلبية ، ملتجما بايمانه الاصيل ، ساعيا وراء الانسان الجديد الذي قرر ان يصنعه لمجتمعه .

ان مبدأ الالتزام بقضية الشعب يعني بلورة نضال الاديب ضد الامبريالية في مذهب متكامل ايجابي وتعريسة المخططات الثقافية

الاستعمارية الهادفة الى تشويه شخصية العربي او تفريها . ومن المحمل ان يجابه ضمير الاديب اخطاء مسيرة وعرة على طريق الثورة ، فيترجرج موقفه او يلبس ما لم تكن رؤيته عميقة ومؤمنة . وتستطيع الامبريالية ان تنفذ بسهولة من خلال اخطاء المسيرة لتحاول ضربها ، وتعيد تقديم النموذج الليبرالي كبديل مرة اخرى . وهننا يقف الاديب الملتزم موقفه الطبيعي المتجاوز . انه ليس موقف تبرير وتغطية ولكنه نقد ذاتي ايجابي يستفاد منه في تجنب اخطاء مماثلة على الطريق الصحيح .

ولعل من المناسب هنا الاشارة الى ان الدعاوة الثقافية الامبريالية قد استطاعت بعذبة الموقف السلبي السذي تركته عصور التخلف فسي مجتمعنا . فكل حطا ينطو الهمة ويعطي تبريرا جديدا للكسل والعزلة . والاديب بحكم حساسيته الخاصة من اكثر الناس نعرا وتقبلا لمثل هذا الابخاء المسموم . ان لديه مثلا عن ثورة تقوم باسم الشعب لصنع حضارة جديدة ، وهو لا يقبل ان يجرح مثاله . وهكذا ينحرف في تيار التمدد السلبي ويفقد الامل . ان الالتزام يعني اولا باول الايمان الذاتي المتحقق عن طريق القناعة الشخصية . وهو ليس ديننا بمعنى انه ينطلق من مسلمات قبلية ويبنى عليها ، بل هو مذهب يطلق من العلم والحقبة العلمية ، ولذلك فصفتة الاساسية هي الموضوعية . والملتزم بهذا المعنى مسئول واصلب الايمان .

الموقف الثاني تجاه الالتزام بالشعب موقف مسن سميناهم بالمسطريين . وهؤلاء يفهمون الالتزام على انه عبارات غزل وتمجيد توجه للسلطة ولتسبب وللمنجزات المتحققة وغير المتحققة . ان مثل هذا المفهوم عن الالتزام يفقده قدرته على التحرك والانساج ويفرغه من محتواه . ضرورة استمرار الثورة لا تبرر اسكوت عن انحرافاتها ومهمة الاديب ان يعلن رؤيته من موقف ايجابي .

ونحن نرى ان كلا الموقفين غريان عن رسالة الاديب العربي في الالتزام . فليس صحيحا ان الالتزام يتنافى والحرية ، او انه طبول ومزامير للسلطة . ان اكثر الناس حريه اكثرهم التزاما . والالتزام وادة حرة لانه بالاصل مصيري . انه ليس ولادة قيصرية ولا نمسوا مبرمجا . وكذلك فهو ليس تقريرا سياسيا ولا حزازير تكتب على انها رموز لتسجيل حوادث تاريخية . وهو شيء اخر غير بطاقة النجاة يبرزها حاملها لشرطة الحياة اليومية . الالتزام لا يعني تضييع سمات الثوريين او خصائصهم ولا وضع الكلمات تحت اقلهم . وعلى هذا النحو لا خوف منه .

ان يكون الاديب ملتزما يعني عبثه على رؤية متماسكة متكاملة يؤمن بها ، يعني تكوين فئات تجريبية ثابتة عنده يمنحها عطاءاته في اطار الابداع والتجديد الذي يفرضه حيوية الثورة . وهو بعيد عن ان يصور الكادحين تصويرا متفالا يبهج النفس وحسب . وليست مهمته اضافة السكر الادبي الى الشاي الثوري : العمال يذهبون الى المعامل ضاحكين او منشدين اغنيات الثورة ، الفلاحون يقبلون على العمل التعاوني بروح معنوية عالية ويتصميم لا يهون ، الجنود يحاربون وليس في قلوبهم ذره من الخوف البورجوازي الاصيل .

ان الثورة قاعدة الحرية . وعلاقة الاديب بها علاقة جدلية تفرض نفسها عبر حيوية الثورة والالتصاق التلقائي للاديب بسيرتها . وليس المقصود هنا ان الادب كل الثورة ، لكنه في الحيز الذي يمتلكه يفدو سيد ارضه . انه ليس دقفا تدق ولا مزامير تهز . وانما هو ابداع الانسان الجديد سلوكا ومعاني وعلاقات منتجة عادلة .

الحرية عنصر من عناصر الالتزام . انها المجال الحيوي الارحب والاطسع مدى للاديب كي يقدم محصوله ، تماما كما هي الارض مجال الفلاح الحيوي لانتاج الفطن والحبوب والثمار . والاديب الملتزم هو ذلك المهاجر البدع في وطنه المنشود ، الفلاح على ارض الادب يزرع الكادحين والمنتجين في تربته وينميهم ليقدم لآلاف سنوات التاريخ المقبلة لوحة عن الانسان في عصره وثورته .

الاديب الملتزم يستهدف الانسان منطلقا وغاية . هو كعمى رد الاعتبار للكادح ، وكعملية اشباع لجوعه التاريخي . والجوع ليس فقط حضور الحاجة الى الخبز ، فليس بالخبز وحده يحيى الانسان . ان

الدعوة مع المخطط الامبريالي لضرب نضال الشعب العربي من اجل الوحدة وعزل تجمعاته في دوائر اقليمية تزداد انفصالا بازيد استعمال اللهجة العامية في ادبها .

الالتزام بالشعب لا يمكن ان يعني تغذية واقعه الفاسد ونحس نعلم ان نشوء اللهجات الاقليمية كان محصلة للتجزئة واستمرار لها ، مثله في ذلك مثل الدعوات القومية الاقليمية والدعوات الى التقرب ونجد التراث . الالتزام بالشعب يعني استيعاب همومه وآماله والعمل على تطوير حياته وخلق ظروف افضل لها . لقد حاولت التيارات المضادة التي بثتها الامبريالية ان تحجب عن الاديب مشاكل الشعب الحقيقية التي هي التخلف والتجزئة والسقوط بين اذرع الاخطبوط الامبريالي . ويبدو واضحا ان التزامه بنضال شعبه يتضمن اغلاق النوافذ التي تهب منها رياح دعوات عميلة كهذه .

ان شعبنا يعاني من مشاكل التخلف والتجزئة والاستعمار معاناته الكبرى. فلسطين والخليج العربي وارثريا وجنوب السودان واسكتندرون، ليست بعيدة عن واعيننا ، اربع عشرة دولة في الوطن العربي وفسى الجامعة العربية ، بدلا من دولة واحدة وشعب موحد الطاقات، خارطة نرسمها كل يوم . مظاهر التخلف وما ينجم عنه من نكسات ليست حافية على احد . هذه المشاكل في عين الاديب مصادر انتاج لا تنضب ، ليس ثمة اغنى من حياة شعب يسابق نفسه ويسابق الزمن ، يكون هنا وينهض هنا ، يخوض معركة وبينه سدا ، ثمة صراع دائم داخل الذات وخارجها ضد الركود والفقر والعبودية وتلك هي مشاكل الانسان الدائمة .

ما هو موقف الاديب الملتزم من هذه الجوانب الحياتية الفنية لشعبه ؟ قلنا في مكان سابق من هذا المقال ان الاديب ليس متفرجا ، وليس شاهدا وحسب ، وانما هو مشارك . ان هذا التعريف يتكلم عن اديب ملتزم ، والتزامه نضالي . ان خروجه من شعب كشعبنا وانتماءه لوطن كوطننا يحتم عليه احد اختيارين : النضال أو العمالة . واما غير المرتبط بهذا او بذاك فهو منبت لا ارضا قطع ولا ظهرا ابقى ولا ادبا قدم .

يناضل الاديب الملتزم لتعريف واقعه العربي ورصد نضال شعبه ، فاذا كان الواقع والنضال ما اسلفنا ، قلنا ان حقبة تاريخية نمر بها الان هي اغنى مما نتصور ومما يستطيع اديب بمفرده ان يحيط بها . لقد هاجمتنا الامبريالية بسلسلة من المؤامرات والعذوانات ، وشمل التخلف والتجزئة الكثير من امكاناتنا وجهودنا كما اتخذ نضال شعبنا مسيرة جديدة بالتسجيل . وهذه الوقائع تلصق بحياة الاديب الخاصة والعامية التصاقا مباشرا . ان الواقع العربي في حاجة الى تعرية لكي تتوضح صورته في اذهان الشعب . وان تقديم الحلول والعمل لانجازها يحتاجان لاكثر من نبي واحد ! فمصرنا هو عصر الشعوب ومعركتنا تحتاج الى الجميع .

ويناضل الاديب ايضا في ميدان الذات الفردية التي لا زالت تحتفظ بشروش عنيفة وصفات نفسية رجعية . ان تعرية الذات العربية جزء من نضاله اليومي . كيف يعيش الفرد العربي ؟ كيف هي علاقته بالآخرين : في البيت والعمل والنوادي والحياة العامة ؟ ان صورة الانسان التقدمي لم تكتمل بعد . لا بد من هجرة في الذات والجماعة لاستكمال شروط تكونها عبر المعاشة والنقد الذاتي وان نجاح مقاومتنا للامبريالية رهين من احد وجوهه ، بتكامل الشخصية العربية وتحريها الذاتي .

مرة اخرى الاديب يناضل لتعرية المخطط الامبريالي والتصدي له وميدان نضاله لا يقتصر على الجانب الثقافي ، بل يشمل الحياة القومية بأكملها . ان السياسة خبز يومي ليس بمعنى العلاقات الدبلوماسية وحياة الكواليس ، وانما بمعنى النضال التحرري المستهدف اقامة مجتمع عربي اشتراكي موحد .

والاديب الملتزم ، في كل ما تقدم ، يكون بشيرا ونديرا ، بشيرا والمستقبل والفايات العظمى ونديرا بتأمير الامبريالية وحلفائها ، وبعنوانها المستمر على شعبه .

هاني الراهب

العبد الشيع والحر المتصور صنوان ، وهما شاغل الاديب الملتزم وقضيته . نحن لا نستطيع ان نجزيء الانسان ابي عدة وعواطف واكف . وكما لا يمكننا تقليصه الى رفيف خبز لا يمكننا القول به بالونا معوفا بالشعارات والعبارات الخلابة تستطيع جزمة الفلاح ان تفجره .

الاديب الملتزم لا يكتب فقط عن شعبه وانما يبده . واذا تذكرنا دعوة فرانز فانون للمثقفين ان يتجاوزوا ماركس وفرويد وسيزير وسنغور ونديروما الى البحث عن نماذج ، الى ان يدعوا ويخلقوا، ادركنا عظم مسئولية الاديب في عصر جامع مخلخل مليء بالمتناقضات الماركسية والعقد الفرويدية . ان مسئوليته هي ان يبني الانسان من جديد، ينيه بعيدا عن التقاليد المبلهة والاساطير وانكسل التاريخي . لم تعد الكتابة تصيدا لشهرة ولا تنبعا لترف جمالي ، لا ترفا ذهني ولا ترجية لاوقات فراغ ، لا سيبيا ولا امتياز بورجوازيا . الكتابة خلق ، اعطاء معان متجددة لحياة الانسان العربي لتلا تسيح في مساومات الامبريالية وبيوت عناكبها . ومن هنا فالالتزام بعيد جدا عن ان يكون رفصة كهان في معبد القضية الثورية .

ان الثورة ضرورية حتمية ، كما يقول فانون ، وانتصارها امر لا مناص منه . وان الانسان اللاتمنني ، المحايد يلاقي مصيرا فاجعا في عصر لم يعد يحتمل انسانا بلا قضية . والاديب الملتزم مطالب بثورة في الادب تعطيه شكلا وبنية جديدين . ومثلما هي الاشتراكية عملية تغيير للبنى الاجتماعية وتقسيم البناء الهرمي للطبقات كي يبعث من جديد مجتمع المساواة والعدالة ، فان الادب عملية ايلاد صيغ جديدة تلائم المعاني الجديدة التي يسهم جميع الكادحين في خلقها. والاشتراكية والادب ابنا الثورة الشرعيان ، الخبز ومعنى الحياة .

في وطننا ، ونحن الآن نواجه جموحا مباشرا واحتلالا عسكريا ومؤامرات مستمرة . . من قبل الامبريالية ، في هذا الوطن المحتن بكونه جبهة امامية لاسيا وافريقيا ، نرى ان للالتزام افاقا ثلاثة هي : رؤية مستقبلية - رؤية جماهيرية - موقف نضالي

لقد المينا الى ان الالتزام ليس وليد الصدفة ولا المرحلة العابرة، وانما اختيار ينطلق من ايمان راسخ بقضية ومصير . انه لاجل ذلك يعمل للمستقبل ويبشر به ، ويشخص الحاضر واقعا وتجارب بوعيه للمستقبل . التشخيص والعمل اذن انطلقا نحو الغد المأمول . لا شك ان في بعض مراحل الثورة نكسات ، ونحن الآن نعانى احداها . لا ينهي دائما نضال الشعب الى نصر .

تبين حتى الآن اننا ربطنا الالتزام بقضية الشعب . لم نربطه بقضية فنية ولا بأسلوب في التعبير . ان مثل هذا الترف متسروك لادباء البرجوازية والعالم الرأسمالي لكننا لا نستطيع ان نفق من فوق اغراءات الفن والاكتشاف فان لها مخاطبتها الخاصة للنفس البشرية . كما ان الامبريالية تحسن دغدغة النوازع الشخصية من مغامرة واكتشاف وحب للمجد الشخصي فلنقي بثقل اجهزتها الثقافية والاعلامية للترويج للنماذج الفردية التي تعيش في عوالم ذاتية براقية . اذ لهذه النماذج بريقها وجاذبيتها ، ولها ايضا رسالتها غير الخافية عن احد وهي صرف الاديب عن تجديد ذاته تجديدا اصيلا بين قومه وفي وطنه .

نحن لا نف نف موقف الشجب والمنع ازاء الاكتشافات الادبية في الاسلوب وفن الكتابة ، ولا يمكن ان نقف هذا الموقف . وفي الحقيقة ان الاديب متروك كلية لتجربته الادبية ينميتها ويطورها غير مشروط بشيء سوى الاصال . واكثر من ذلك ان الثورة القومية الاشتراكية ، بما هي من نزوع للتجديد وحركة نحو الخلق والابداع تفترض بالضرورة انماط جديدة من التعبير عن ذات الامة وذات الفرد . وسوف نذهب الى ابعد من ذلك فنقول ان الاديب الملتزم اقدر من غيره على تفسير او تحطيم القوالب الجامدة . ان تيارات التجديد تتلاقى جميعها في بحر الثورة سواء منها ما كان فسي السياسة والاقتصاد او الاجتماع والثقافة .

لقد انطلقت رياح التجديد من مختلف النوافذ . بعض الابداء طالب باسقاط اللغة العربية الفصحى واعتبرها منافية للطبيعة الشعبوية ودعا الى اللهجات المحلية العامية وسموها لغات . وقد التفت هذه